تشاؤم أبي العلاء المعري: أسبابه ومظاهره

Pessimism of Abul 'Alā al-Ma'arri: Causes and Reflections

بخت زبير *

د-محمد ظاهرشاه**

Abstract

Human beings- come across various things - of contentment and annoyance in life. The current study discusses the concept of happiness and annoyance, which are directly related to two basic theories of life that is pessimism and optimism. Pessimism, being a psychological factor, differs from people to people and time to time. Some people may be victims of pessimism because of political and social problems while others may be victims of ailments. So is the case of poets and writers, being interpreters of society, they interpret themselves quite vividly. Amongst the pessimist poets, one is Abul 'Alā al-Ma'arri. In his poetry pessimism can be found in aburdance. This research focuses on the reasons behind the pessimism of Abul 'Alā al-Ma'arri and its reflections on his life and theory.

Keywords: Abul 'Alā al-Ma'arri, Poetry, Optimism, Pessimism

فإن الإنسان خلق ليعيش في الدنيا وهو يواجه في حياته هذه أنواعا من أشياء تفرحه وأشياء أخرى تحزنه فهو بين خير يأمله وبين شر يخافه وبالتالي يفرح حينا ويتألم حينا آخر. وهذه المواجهة هي التي تبرز في صورة نزعتين نحو الحياة: النزعة التشاؤمية والنزعة التفاءلية، والنزعة التشاؤمية هي حالة نفسية تتكون لأسباب تختلف من عصر إلى عصر ومن شخص إلى شخص فيتشاؤم بعض الناس عندما ييأس ويقنظ أو يعجز عن تحقيق آماله وطموحاته. كما يتشاؤم بعضهم عندما يقع في حياته أمراض نفسية وجسدية، ومنهم من يتشاؤم بسبب الأوضاع الإجتماعية والسياسية في المجتمع الذي يعايشه.

وتلك هي حالة الأدباء والشعراء كذلك، فاشاعر والأديب يترجم نفسه بشعره وأدبه ثم يترجم مجتمعه بعد ذلك، ولذا توجد علاقة بين الأزمات الإجتماعية والسياسية وبين التشاؤم عند الشعراء والأدباء.فالأدب تعبير عن المجتمع.[1]

ومن هؤلاء الشعراء أبو العلاء المعري الذي اشتهر بالتشاؤم وزاد في أدبه وشعره زيادة مفرطة، ولتشاؤمه اعتزل عن الناس وملذات الحياة وزاد من نقد المجتمع وأهل زمانه. ولذا يحاول هذا المقال أن يرصد أسباب التشاؤم لدى أبي العلاء المعري ومظاهره مبينا النقاط الآتية.

معنى التشاؤم.

نبذة عن الشاعر.

أهم أسباب التشاؤم عند الشاعر.

أهم مظاهر التشاؤم عنده.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

* باحث في مرحلة الدكتوراه في جامعة اسلامية كالج بشاور وأستاذ في كلية الإمام أبي حنيفة للغة العربية والدراسات الإسلامية، بشاور.

** أستاذ مساعد،قسم اللغة العربية، جامعة بشاور

معنى التشاؤم.

التشاؤم لغة: التشاؤم لغة من مادة شأم، والشؤم ضد اليمن، يقال رجل مشوم ومشؤم، ويقال: ما أشأم فلانا.[2] وقد شأم فلان على قومه يشأمهم، فهو شائم، إذا جر عليهم الشؤم، وقد شئم عليهم فهو مشؤوم، إذا صار شؤما عليهم، وقوم مشائيم. وأنشد أبو مهدي:

مشائيم ليسوا مصلحين عشيرة ولا ناعب إلا بشؤم غرابها.[3]

وطائر أشأم: جار بالشؤم.[4] والشؤم الشر، ورجل مشؤوم غير مبارك، وتشاؤم القوم به مثل تطيروا به.[5]

وأما إصطلاحا: فنجد ظلالا مختلفة لمعنى التشاؤم، منها المذهب القائل بأن الشر أغلب من الخير، وأن العدم خير من الوجود، ومنها المذهب المتضمن أن الألم في الحياة أغلب من اللذة، بل إن الألم هو الحقيقة الثابتة، أما اللذة فليست سوى تعويق موقت لها، ومنها كذلك النظرية التي تقول بأن الطبيعة لا تهتم بالخير أو بالشر في الأخلاق ولا بشقاء المخلوقات أو سعادتهم وآخر هذه الظلال_ وهو المعنى الشائع– أن التشاؤم عبارة عن استعداد أو حيل فطري لرؤية جانب الشر في الأشياء من ناحية، ولتوقع أن الأحداث تنتهي بعواقب سيئة من ناحية أخرى.[6]

- نبذة عن الشاعر أبي العلاء المعري:

هو أبو العلاء أحمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان بن أحمد بن سليمان بن داوود بن المطهر....[7] التنوخي–نسبة إلى تنوخ، وهم قبيلة من اليمن من قضاعة[8] من أهل معرة النعمان وإليها ينسب، وهي بلدة بالشام من أعمال حمص بين حلب وحماة.[9] واشتهر بكنيته "أبي العلاء"[10] ولد بمعرة النعمان سنة ثلاث وستين وثلاثمائة.[11] وكان اليوم يوم الجمعة عند مغيب الشمس.[12]

أصيب بالجدري صغيرا ففقد بصره في الرابعة من عمره.[13] فكان لا يذكر من الألوان إلا الأحمر، لأنهم البسوه ثوبا أحمر عندما جدر.[14] وكان بيته بيت علم وقضاء وشعر، إذ ظل قضاء المعرة طويلا فيهم. وطبيعي أن يقتدي بهم فيكب بعد حفظ القرآن الكريم على كتب الدين الحنيف واللغة. وأيضا فإن فقده لبصره مبكرا جعله يعني بطلب العلم وتتلمذ على أبيه أولا ومن في بلدته من تلاميذ ابن خالويه، ولم يلبث حين أخذ ما عندهم جميعا أن رحل إلى حلب وحضر على علمائها وعاد منها وهو في نحو العشرين من عمره[15]. قال الشعر وهو ابن إحدى عشر سنة.[16]

رحل المعري إلى بغداد في أواخر السنة 398هـ. وبقي بها نحو سنة وسبعة أشهر.[17] وكان من أسباب عودته سريعا نشوبة خصومة بينه وبين المرتضى العلوي أخ شريف الرضى بسبب تعصبه للمتنبي، وأيضا كان قد وصله خبر بمرض أمه، فعاد عجلا، ووجدها قد لبت نداء ربها.[18]

وبعد عودته من بغداد ووصوله إلى المعرة لزم بيته فلم يخرج منه، وسمى نفسه رهين المحبسين يعني حبس نفسه في المنزل وترك الخروج منه وحبسه عن النظر إلى الدنيا بالعمى.[19] وأثناء بقائه في بيته كان لا يأكل اللحم، فلم يأكله خمسا وأربعين سنة،[20] واختار لنفسه حياة زاهدة وكان طعامه العدس والتين، أو كما يسميها البلسن والبلس رافضا ما وراءهما من طيبات الطعام ولذائذه، ولباسه خشن الثياب من القطن وفرشه من لباد (صوف) في الشتاء وحصيرة من البردي في الصيف. ولعله صنع ذلك مبالغة في الزهد ورفض طيبات الحياة. ولم يتزوج لأنه كان يحس بعمق آلام الإنسان في دنياه.[21]

عندما لازم بيته في سنة 400هـ، شرع في التصنيف، وأخذ عنه الناس، وسار إليه الطلبة من الآفاق، وكاتبه العلماء والوزراء والفضلاء وأهل الأقدار، واختاروا عليه التصنيفات ففعل، وكان نادرة زمانه.[22] واتفق محبوه ومبغضوه على أنه كان وافر البضاعة من العلم، غريز المادة في الأدب، إماما فيه، حاذقا بالنحو والصرف، نسيج وحده في الذكاء والفهم وقوة الحافظة. أما اللغة وحفظ شواهدها وتقييد أوابدها فقد كان فيها أعجوبة من العجائب.[23] وقالوا عنه أنه كان يلعب النرد والشطرنج،[24] وإذا سمع حديثا بلغة غير العربية حفظه بحذافيره، يقول هبة الله بن موسى المؤيد في الدين: حضرت إلى أبي العلاء واتفق حضور أخي معه فتحدث أخي معي حديثا باللسان الفارسي ثم رجعت إلى أبي

العلاء وطلبت منه أن يريني من سرعة حفظه شيئا فقال: خذ كتابا من هذه الخزانة واذكر أوله فإني أورده عليك حفظا. فقلت كتابك ليس بغريب إن حفظته، فقال: قد دار بينك وبين أخيك كلام بالفارسية إن شئت أعدته، فأعاد الحديث أجمع ما أخل بحرف منه، ولم يكن يعرف اللغة الفارسية.[25] قد منح عقلا قويا دائب النشاط يريد ان يطحن كل شيئ يصل إليه ليعرف كنهه.[26]

أما ما يتعلق بمعتقده فلم يختلف الناس في رجل اختلافهم في أبي العلاء، ولا تراوحوا بشخص بين الكفر والإيمان تراوحهم فيه. والمختلفون فيه ثلاثة أقسام:

فريق متزندقون، يكفرونه ويحبونه لكفره، أو مؤمنون يبغضونه لذلك.

وفريق يذهبون إلى صحة إيمانه، وربما تغالوا فألحقوه بالأولياء الصالحين، ورووا له الكرامات.

وآخرون متحيرون أمسكوا عنه، ووكلوا أمره لخالقه.[27]

والذين رأوا الرأي الأول استدلوا له بشكه وتجافيه عن أكل الحيوان، وأنه أراد أن يعارض القرآن بكتابه"الفصول والغايات". أما أصحاب الرأي الثاني فقد استدلوا لصحة إيمانه بما يحتوي عليه أدبه من الإيمان بالله ورسله و...... وقد قيل: أنه تاب وأناب.[28]

توفي أبو العلاء المعري يوم الجمعة ثالث — وقيل — ثاني شهر ربيع الأول، وقيل ثالث عشرة، سنة تسع وأربعين وأربعمائة بالمعرة. وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت:

هذا ما جناه أبي علي وما جنيت على أحد.

وكان مرضه ثلاثة أيام، ومات في اليوم الرابع، ولم يكن عنده غير بني عمه.[29] ولما مات ختم عند قبره في أسبوع واحد مائة ختمة، وفي رواية مائتان، واجتمع عليه خلق كثير، وأنشد أربعة وثمانون شاعرا مراثيهم فيه.[30]

أسباب تشاؤم أبي العلاء المعري:

1–الأوضاع الاجتماعية:

لقد أثر فساد الحياة السياسية، والاقتصادية، والدينية على الحياة الاجتماعية، فالحياة الصالحة تتألف من سياسة مستقيمة، وعدل شامل، ونظام اقتصادي معتدل، ولكن كل هذه الصفات كانت مفقودة في عصر أبي العلاء، إلى جانب الرق والعبودية، و.......[31]. ومن الأخلاق التي كثر استنكار المعري بها، ولام الناس عليها كثرة شرب الخمر، والغلو في اشباع الرغبة الجنسية.[32] وعلى وجه العموم فمن درس الآداب في عصره يدرك مقدار ما بين أخلاقهم وبين الفضيلة من الأمد البعيد فليس في تلك الآداب خلقاً أظهر وأجلى من الدعارة، والمجون،[33] فلنسمع إلى خطابه للناس في هذا المقطع الذي يذكر فيه ما عابه على أهل زمانه يقول:

مساجدكم ومواخيركم سواء فبعداً لكم من بشر

وما أنتم بالنبات الحميد ولا بالنخيل ولا بالعشر[34]

ويقول ساخطا على الناس لجهلهم بالأشياء وحقيقتها:

لحا الله قوماً إذا جئتهم بصدق الأحاديث قالو: كفر[35]

2–الأوضاع السياسية:

يعد أبو العلاء المعري من كبار أدباء العصر العباسي، وكان لأوضاع العصر الذي نشأ فيه أثرا كبيرا على أفكاره وأدبه، والأوضاع السياسية في عصره لم تكن إلا كبقية الأوضاع التي أثرت سلبا في تكوين شخصيته وأدبه.

وقد ذكر أبو العلاء في شعره بعض مظاهر من سياسة زمانه وكيف يولّى الخليفة؟ وكم يكثر عددهم؟ يقول:

لم أرض رأي ولاة قوم لقبوا ملكا بمقتدر وآخر قاهرا

هذى صفات الله جل جلاله فالحق بمن هجر الغواة مظاهرا

نبغى التطهر والقضاء جرى لنا بسواه حتى ما نعاين طاهرا

ملكوا فما سلكوا سبيل الرشد بل ملأوا الديار ضواربا ومزاهرا[36]

ولا يمكن للإنسان في هذا الشأن أن ينسى رؤيته لهؤلاء الأمراء والملوك والولاة والوزراء الذين غلبوا على أمرهم مثل الرعية وأصبحوا لا يعرفون الأمة وما يجب عليهم تجاهها، ولذلك قال:

فالدين قد خسَّ حتى صار أشرفه بازاً لبازين أوكلبا لكلاب

والظلم عندي قبيح لا أجوزه ولو أُطعت لما فاءوا بأجلاّب

إن السواد لجنس خيره زمر فقس بني آدم منه على اللاب.[37]

وعندما يستعرض حال الأمة السياسي فلا يجد ما يسره فيتمنى أن يجنه قبر ما ليخلصه من ذلك، يقول:

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها

فرقا شعرت بأنها لا تقتني خيراً وأن شرارها شعراؤها[38]

فالذي يقرأ اللزوميات وسقط الزند يتبين له أن أبا العلاء كان يكره الحياة السياسية –خاصة في الشام —كرها شديداً، وقد تعرض لهم فهاجم الإسماعيلية والقرامطة وغيرها من الفرق المذهبية السياسية. ولم يكن حبه لأعراب قيس وطيء بأكثر من حبه للفاطميين، كان يكره من أولئك الأعراب ظلمهم وجهلهم وغلظتهم وقسوة قلوبهم، وكان ينكر من الفاطميين إدخال مذاهبهم في السياسة. وكان يكره الحروب لشدة رأفته على الإنسان، لما فيها من إراقة دماء

3–الحالة النفسية:

كل من وقف من الباحثين عند صفات أبي العلاء وحياته وأدبه وجد عنده حياة حزينة كئيبة، وحالة مملوءة باليأس والتشاؤم، وفلسفة تتردد بين الشك واليقين في العقيدة والفكر، وبين انعزال المجتمع وقبوله. ولكل هذه العوائق أسباب تتعلق _مع بقية المؤثرات–بالمؤثر النفسي أو الذاتي. يقول الدكتور طه حسين مشيرا إلى حالة أبي العلاء النفسية: "سماه أبواه بهذا الاسم ولكنه كرهه حين بلا نفسه وعرف أخلاقه، فرأى من الكذب اشتقاق اسمه من الحمد وإنما ينبغي أن يشتق من الذم".[39]

ولعل الدكتور طه حسين يشير إلى هذا البيت الذي يعترض فيه أبو العلاء على تسميته بأحمد حيث يقول:

وأحمد سماني كبيري وقلما فعلت سوى ما استحق به الذما.[40]

كذلك بالنسبة لكنيته فلم يرض بها أيضا. ورأى أن من الظلم أن يضاف إلى التصعيد والعلو، وإنما العدل أن يضاف إلى السقوط والهبوط، يقول:

دعيت أبا العلاء وذاك مين ولكن الصحيح أبا النزول.[41]

اما اللفظ الذي اختاره لنفسه وكان يحب أن يدعى به فهو "رهن المحبسين" فالمحبس الأول هو بيته الذي احتجب فيه والعمى الذي منعه من مشاهدة الأشياء الظاهرة، إلا أنه ذكر لنفسه في اللزوميات سجونا ثلاثة: أحدها منزله، والآخر ذهاب بصره، والثالث: جسمه المادي الذي احتبست فيه نفسه، وذلك حيث يقول:

أراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر الخبيث

لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكـــــون النفس في الجسـم الخبيث[42] .[43]

تلك إذا رؤيته واعتقاده في اسمه وكنيته وأيامه التي يعيشها بالإضافة إلى عوامل نفسية أخرى، لو فكرنا فيها لوجدنا لها تأثيرا كبيرا في تشاؤمه، منها:

1: –العمى:

ففي سنة سبع وستين وثلاثمائة من الهجرة (397هـ)، وهي السنة الرابعة من حياة أبي العلاء، رمته الأيام بأول المصائب وأكبر الأحداث. فقد أصيب بالجدري الذي انتهى بعماه نهائيا. أصيب بهذه المصيبة وهو صبي لا يعقل فلم يستطع أن يتذكر ما رأى من الألوان ولم يبق في ذاكرته منها إلا الحمرة، لأنه ألبس في الجدري ثوبا معصفرا.[44] فكان اشتداد المرض عليه وتأثيره فيه من الأسباب التي نقشت هذه المصيبة في نفسه نقشا لا يزول، فأذكرته إياها، وأذهلته عما سبقها.[45] وقد ذكر أبو العلاء هذه الآفة في شعره، في مثل قوله:

ولطالما صابرت ليلا عاتما فمتى يكون الصبح والإسفار.[46]

وكان أبو العلاء يحب الاستتار في كل شيء، ويقول: إن العمى عورة فيجب ألا يظهر الناس عليه، لذلك اتخذ له نفقا يأكل فيه على غير مرأى حتى من خادمه.[47] وهو يقول:

ذهاب عيني صان الجسم آونة على التطرح في البيد الأماليس

وأن أبيت سمير الكدر في بلد يطوى فلاه بتهجير وتغليس.[48]

وواضح أن الناس حين يعينون أمثاله أثناء هذه المصاعب إنما يعينونه عن رفق وعطف وإحسان. فإذا كان الرجل يملك قلبا ذكيا ونفسا أبيا وغريزة وحشية يؤذيه ويشق عليه، ويفضل الحرمان على التعرض والرحمة والإحسان.[49]

2–الرحلات:

ولعل من أشهر رحلاته التي كانت ذات أثر باهر في نفسه وتفكيره رحلته إلى حلب لأول مرة ليزداد علما وفقها على يد علمائها وشيوخها ثم رحلته الشهيرة إلى بغداد سنة(398هـ) وأقام ببغداد سنة وسبعة أشهر. وقصد أبا الحسن علي بن عيسى الربعي النحوي ليقرأ عليه. فلما دخل عليه قال له: ليصعد الأصطيل، فخرج مغضبا ولم يعد إليه، والأصطيل في لغة أهل الشام الأعمى. ودخل على المرتضى أبي القاسم فعثر برجل فقال: من هذا الكلب؟ فقال أبو العلاء: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسما، وسمعه المرتضى وأدناه فاختبره فوجده عالما مشبعا بالفطنة والذكاء.[50]

وهو يقول فيما يجري في بغداد من المنافسة على المناصب والحسد بين أهلها:

رحلت فلا دنيا ولا دين نلته وما أوبتي إلا السفاهة والخرق

متى يخلص التقوى لمولاته لا تغض عطاياه من صلى وقبلته الشرق.[51]

3–حب العزلة والاعتزال:

قد يئس أبو العلاء من الناس والحياة، وعرف الدهر وتصاريف أيامه ولياليه. وهو يذكر الليل وظلمته كثيرا، ولعل ذلك بسبب العمى، وأيضا بسبب تشاؤمه. وشكا كثيرا من أنه لا يجد في الدنيا صديقا ولا أخا صافيا، حتى ليقول:

فظن بسائر الإخوان شرا ولا تأمن على سر فؤادا

فلو خبرتهم الجوزاء خبري لما طلعت مخافة أن تكادا[52]

ويبالغ أبو العلاء في سوء ظنه بالناس في هذه القصيدة فيقول إن الجوزاء منزل عطارد المنسوب إليه السلم، لو علمت كيد الناس وخبث سرائرهم لما طلعت عليهم بالليل مخافة أن يصل إليها كيد من كيدهم.[53] والمعلوم أن في طبيعة أبي العلاء شيئا من حب العزلة والانفراد، عرفه أبو العلاء في نفسه فقال في رسالة إلى خاله أبي القاسم "إنه وحشي الغريزة إنسي الولادة".[54] وهو يذكر هذه الحالة النفسية كثيرا في أدبه، فيقول مرة:

عللاني فإن بيض الأماني فنيت والظلام ليس بفاني

إن تناسيتما وداد أناس فاجعلاني من بعض من تذكران

رب ليل كأنه الصبح في الحس ن وإن كان أسود الطيلسان

كم أردنا ذاك الزمان بمدح فشغلنا بذم هذا الزمان

ليلتي هذه عروس من الزن ج عليها قلائد من جمان

هرب النوم عن جفوني فيها هرب الأمن عن فؤاد الجبان

وكأن الهلال يهوى الثريا فهما للوداع معتنقان.[55]

فالقصيدة توضح الحالة النفسية لديه، فإن النفس تخدع بالأماني المسلية والأحاديث الملهية، حتى ماتت الأحلام والأماني بضروب من هذه الأحاديث، أما الظلام فهي لاتزال باقية.

مظاهر التشاؤم عند المعري:

1–ذم الدنيا:

شعر أبي العلاء الموجود بين أيدينا يشهد أنه كان يسكن في الدنيا كالسجين الذي ينتظر الخروج منه، والواضح أنه كان يرى الدنيا سجنا، والموت خروجا منه، يقول بعد أن جرب الدنيا:

وقد بلونا العيش اطواره فما وجدنا فيه غير الشقاء.[56]

والذي يدعي الخير في الدنيا فهو كاذب عنده، يقول:

من ادعى الخير من قوم فهم كذب لا خير في هذه الدنيا ولا خير.[57]

وهو في ورطة كبيرة مع الدنيا فلوكانت زوجة لطلقها نهائيا ولكنها الأم:

يا أم دفر، لحاك الله والدة منك الإضاعة والتفريط والسرف

لو أنك العرس أوقعت الطلاق بها لكنك الأم، هل لي عنك منصرف.[58]

ولدناءة الدنيا تكنى بأم دفر ولا تكنى بأم طيب:

دنياك تكنى بأم دفر لم يكنها الناس أم طيب[59]

وهو يطالب الناس بالرجوع إلى القلوب والعقول فإن القلوب تخبر أن الدنيا شر:

سل الفؤاد عن الحيا ة فإنها شر وشر

قد نلت منها ما كفا ك فما ظفرت بما يسر.[60]

ويقول:

خسست يا أمنا الدنيا فأف لنا بنو الخسيسة أوباش أخساء

وقد نطقت بأصناف العظات لنا وأنت فيما يظن الناس خرساء.[61]

أي أمنا الدنيا، إنك لذليلة حقيرة، فأف لنا نحن أبنائك من أوباش أذلاء، فقد ورثنا عنك ذلك، إنك قد تعطينا أنواعا من العظات، وألوانا من النصح، عندما تتكشفين لنا من السوء والشر، مع أن الناس مع ذلك يرونك خرساء لا تتكلمين[62]. والدنيا عنده مثل الميتة والناس حولها مثل الكلاب، والذي لم ينل منها خير من الذي نال منها:

أصاح هي الدنيا تشابه ميتة ونحن حواليها الكلاب النوابح

فمن ظل منها آكلا فهو خاسر ومن عاد عنها ساغيا فهو رابح[63]

وهو يدعو الناس إلى إهانة الدنيا:

نصحتكم أهينوا أم دفر فما يبقى لكم منها نصاح.[64]

2–ذم الناس:

من المعلوم أن أبا العلاء المعري كان يتشاءم، وأقوى تشاؤمه كان من الحياة والناس. فهو لا يرى في الحياة إلا الشقاء والتعب ولا يرى في الناس إلا شرا، فالناس كلهم قد فطروا على الشر ولا سبيل إلى خيرهم ولا إلى إصلاحهم، لذا قد أكثر ذم الناس في شعره. فهو لا يرى في الناس من يصلح للصداقة:

فأي الناس أجعله صديقا وأي الأرض أسلكه ارتيادا.[65]

ويقول:

حوتنا شرور لا صلاح لمثلها فإن شذ منا صالح فهو نادر

والجبلة على الشر لا يمكن تغييرها، يقول:

فقل للغراب الجون إن كان سامعا أأنت على تغيير لونك قادر.[66]

والانصاف أقل ما وجدناه عند الناس أما الأكثر فهو الظلم عندهم. يقول:

الظلم أكثر ما يعيش به الفتى وأقل شيئ عنده الإنصاف.[67]

وأن أهل الأرض أصحاب مكر ونفاق وخديعة. فهو قد عرفهم قديما، وأنهم لا يعرفون الشكر. يقول:

عرفتكم بني حواء قدما   فكلكم أخو ضغن مكور

وما فيكم على الإحسان جاز   ولا منكم على النعمى شكور.[68]

وقد عاشوا على الخديعة والمكر حتى أصبحوا مثل النمور والذئاب، يقول:

وعاشوا بالخداع فكل قوم   تعاشر من ذئاب أو نمور

إذ ضحكوا لزيد أو لعمرو   فإن السم يخبأ في العمور.[69]

ولا تهذيب لرجل في هذا المجتمع ولا لأنثى، يقول:

جرى الناس مجرى واحدا في طباعهم   فلم يرزق التهذيب أنثى ولا فحل.[70]

وطبع الآدمي هو الغدر والمكر، أما الذي يدعي الوفاء فهو لا يدخل في زمرة الآدميين:

والغدر في الآدمي طبع   فاحترزي قبل أن تنامي

من ادعى أنه وفي   فلينتسب في سوى الأنام.[71]

3–حب الموت:

يقول أبو العلاء وهو يعلن أنه لايكره قرب الموت:

إن يقترب الموت مني   فلست أكره قربه

وذلك أمنع حصن   يصير القبر دربه[72]

ويقول:

متى ينقضي الوقت والله قادر   فنسكن في هذا التراب ونهدأ[73]

يقول: ما أقدر الله على أن يرجعنا إلى هذا التراب، فنسكن ونستريح بعد حركة وتعب، لقد عاشت نفسي هذا الجسم النكد، فما أصابها من جواره إلا الأذى، والصدأ الذي يفسد المعدن، ويجلب لها الكدر بعد الصفاء.[74]

ويقول:

تعالى رازق الأحياء طرا   لقد وهت المروءة والحياء

وإن الموت راحة هبرزي   أضر بلبه داء عياء.[75]

يقول: تعالى الله الذي شمل الناس بنعمته فضله، وعمهم برزقه، ولم يفرق بين تقي وفاجر، ولا بين مقل ومكثر، لقد انتهت المروءة والوفاء، حتى بغضت الحياة إلى البصير العاقل، وأصبح الموت له راحة والعدم له نعيما.[76]

ويقول:

حياة عناء وموت عنا   فليت بعيد حمام دنا

يد صغرت ولهاة ذوت ونفس تمنت وطرف رنا.[77]

وهو لا يدري ربما الذاهبون من الناس أقرب إلى الله وهم في راحة ونعيم. وأما الذي يخاف من الموت ويريد طول البقاء فعليه أن يعلم جيدا أن طول البقاء سم مجرب، يقول:

بقيت وما أدري بما هو غائب لعل الذي يمضي إلى الله أقرب

تود البقاء النفس من خيفة الردى وطول بقاء المرء سم مجرب[78]

وهو يرى عاقبة الميت محمودة لأنه قد خرج من العقاب الأليم في الدنيا، يقول:

عاقبة الميت محمودة إذا كفى الله أليم العقاب[79]

وهو يعلن بكل صراحة بأن الموت راحة وهو خير من الحياة يقول:

موت يسير معه راحة خير من السير وطول البقاء

وقد بلونا العيش أطواره فما وجدنا فيه غير الشقاء[80]

يقول: ما ألذ وأحلى الموت الذي تتبعه الراحة الباقية. لقد أفضله على العيش الرخي والبال الهني، فالموت لا يشوبه كدر ولا يتعب الإنسان بعده، لقد بلونا العيش أطوارا، وجربنا الدهر أشطرا فلم نجد إلا مرا، ولم نلق إلا شرا، ولم نشهد إلا التعب والشقاء.[81]

ويقول:

يدل على فضل الممات وكونه إراحة جسم أن مسلكه صعب

ألم تر أن المجد تلقاك دونه شدائد من أمثالها وجب الرعب[82]

يقول: لا تحقر الموت ولا تزهد فيه، ولكن أعظمه واسع إليه. فإنه جدير بأن يكون مطمعا للنفوس العظيمة والقلوب المطمئنة. وخير دليل على شرفه هو صعوبة الطريق إليه، لأننا إنما نسلك إليه طريق هذه الحياة، نحتمل أهوالها، نتجشم خطوبها، نتجرع غصصها، ابتغاء راحة الموت الدائمة، ودعته الخالدة، فهو كالمجد الرفيع الذي لا ينال إلا بالتعب والمشقة.[83]

4- حب الاعتزال:

من المعلوم أن أبا العلاء المعري كان يتشاءم وأقوى تشاؤمه كان من الحياة والناس. فهو لا يرى في الحياة إلا الشقاء والتعب ولا يرى في الناس إلا شرا، فالناس كلهم قد فطروا على الشر ولا سبيل إلى خيرهم ولا إلى إصلاحهم وبالتالي هو دعا الناس إلى الاعتزال والبعد من البشرية وحكم بنفسه على نفسه بالابتعاد عن الناس والسجن، وكان سجنه في المرحلة الأولى عبارة عن محبسين وهو العمى وعدم الخروج من بيته وفي المرحلة الثانية جعل السجون ثلاثة (محبسين المذكورين والروح في الجسم الخبيث) فقال:

أراني في ثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث

لفقدي نظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسم الخبيث.[84]

ثم نراه قد دعا إلى الخلوة والوحدة وبدأ يبين للناس فوائد العزلة والوحدة. فيقول:

هذا طريق للهدى لاحب يرضى به المصحوب والصاحب

أهرب من الناس فإن جئتهم فمثل سأب جره الساحب.[85]

يقول: أيها العاقل البصير والحكيم الحازم، لقد وضحت لك طريق الهدى والرشد فأنت حري أن تسلكها. وظهرت أمامك علامات الرشد، فأنت أجدر أن تهتدي بها. طريق آمنة، وسبيل واضحة ليس للظلم فيها موضع، تلك هي العزلة والبعد عن الناس، والخلوة إلى نفسك، فاحرص عليها، واعلم أن تقربك من الناس وتنزلك إليهم يضرك فقط ولا يفيدك.[86]

وهو يبين فوائد العزلة والوحدة ويقول:

وإذا انفرد الفتى أمنت عليه دنايا ليس يؤمنها الخلاط

فلا كذب يقال ولا نميم ولا غلط يخاف ولا غلاط[87]

ويقول:

الحكم لله فالبث مفردا أبدا ولا تكن بصنوف الناس مختلطا[88]

وهو يرى الراحة في الوحدة والتعب في محاورة الناس والعيش معهم. ويقول إن من فطرة الناس أنهم عندما يجتمعون يجلبون الشر ويتولد فيهم القيل والقال. يقول:

في وحدة الراحة العظمى فأحي بها قلبا وفي الكون بين الناس أثقال[89]

وهو يبين الطريق الذي يمكن للإنسان أن يبتعد به من الظلم وألا يقع في ظلم الآخرين. وهي طريق الوحدة، يقول:

اجتنب الناس وعش واحدا لا تظلم القوم ولا تظلم.[90]

ويقول:

واهرب من الناس ما في قربهم شرف إن الفنيق إذا داني الأنيس عقر.[91]

5-الدعوة إلى عدم الانجاب وقطع النسل.

من المعلوم أن أبا العلاء المعري قد تمنى لنفسه الموت وجعله منقذا له من سجنه في هذه الدنيا كما دعا إلى الإعتزال والوحدة واعتزل بنفسه أيضا. بل حمله تشاؤمه الشديد على الاعتقاد بأن إنجاب الأبناء إثم كل الإثم، لأنهم بمجيئهم إلى الدنيا سيستعرضون لألوان من الشقاء والتعب. يقول الدكتور طه حسين: " لذلك كره أبو العلاء الوجود، وآثر العدم، وتمنى للوليد ألا يولد. وللحي أن يفنى، فقال:

فليت وليدا مات ساعة وضعه ولم يرتضع من أمه النفساء

وقد أكثر في ذلك حتى تجاوز القصد. ومن هنا رأى أن من الواجب اتقاء الوجود، والاجتهاد في قطع سلسلة بالإعراض عن النسل الذي هو الحافظ لهذا الوجود. وقد عد أبو العلاء النسل جناية على الأبرياء، لأنه إلقاء أولئك الأبناء في بيئة مملوءة بالشرور، وقد كانوا بنجوة عنها لو لم يولدوا"[92]

إذا أبو العلاء يرى إنجاب الأولاد جناية وجهالة وظلما، ولأجل ذلك أوصى بأن يكتب على قبره:

هذا ما جناه أبي علـ ـي وما جنيت على أحد.[93]

فدونك شغلا ليس هذا لعله يعود بنفع لا كشغلك بالنسل

أبوك جنى شرا عليك وإنما هو الضب إذا يسدى العقوق إلى الحسل.[94]

ويقول:

وهو يطلب من الناس أن يأمروا أبناءهم بالابتعاد عن النسل والتزويج، لأنهم قد وقعوا في تلك المعصية وينبغي ألا يقع أبناءهم فيها. يقول:

واطلب لبنتك زوجا كي يراعيها وخوف ابنك من نسل وتزويج.[95]

وهو يرى كرامة الأبناء بقاءهم في ظهور آباءهم، يقول:

وإذا اردتم للبنين كرامة فالحزم أجمع تركهم في الأظهر.[96]

وهو ينصح الناس بعدم النكاح وإن خافوا الإثم فالنكاح دون الإنجاب والنسل. يقول:

نصحتك لا تنكح فإن خفت مأثما فأعرس ولا تنسل فذلك أحزم.[97]

ولتشاؤمه يهاجم المرأة ويقبحها. ولا سيما في مجال ترويج النسل والانجاب. فهو يخاطبها ويطلب منها أن تكون مثل النجوم التي لا تلد، ولا تكون كالتي ضاق بأولادها البلاد. يقول:

يا ليت آدم كان طلق أمهم أو كان حرصها عليه ظهار

ولدتهم في غير طهر عاركا فلذلك تفقد فيهم الأطهار.[98]

وهو لا يرى ما ولدته النساء ولدا فارسا وإنما هن يلدن القبور، يقول:

يا حصان النساء كم فارسا ولـ ـدك مه وإنما ولدت قبورا.[99]

ويقول:

فليت حواء عقيم غدت لا تلد الناس ولا تحبل[100]

ولشدة غيظه هو يهاجم الآباء حتى في القبور، فيخاطبهم بقوله:

يا أمة في التراب هامدة تجاوز الله من سرائركم

يا ليتكم لم تطؤوا إماءكم ولا دنوتم إلى حرائركم

أن استرحتم مما نكابده فنحن من بعد في جرائركم[101]

الهوامش والمصادر:

[1]– حنا الفاخوري ، الجامع في تاريخ الأدب العربي (القديم) ، ط:1 : 1986، دار الجيل – بيروت لبنان_ ص:30 .

[2]– محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح ، (د–ط) 1986م، مكتبة لبنان– بيروت، ص:138.

[3]– الجوهري، الصحاح، (د–ط) 2009م، دار الحديث– القاهرة، ص:579.

[4]– الفيروز آبادي، القاموس المحيط، (د–ط) 2008م، دار الحديث– القاهرة، ص:831.

[5]– الفيومي ، المصباح المنير، (د–ط) 1987م، مكتبة لبنان– بيروت،ص: 125.

[6]– مجدي وهبة وكامل المهندس، معجم المصلحات العربية، ط:2– 1984م ،مكتبة لبنان– بيروت، ص:99 .

[7]- علي بن يوسف القفطي، أنباء الرواة ط: 1 -1986م ، دار الفكر العربي – القاهرة 82/1. وأحمد تيمور، أبو العلاء المعري، (د–ط) 1940، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ص: 10.
[8]- أحمد تيمور، أبو العلاء المعري، ص:11. لجنة التأليف والترجمة والنشر–القاهرة، 1940م
[9]- نفس المصدر، ص: 12.
[10]- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات–الشام) ط: 2 – 1990 م ، دار المعارف القاهرة، ص: 167.
[11]- ياقوت الحموي ، معجم الأدباء ، ط:1 – 1993م، دار الغرب الإسلامي بيروت – لبنان ص :295. والذهبي، سير أعلام النبلاء ، (د–ط) – 2004م ، بيت الأفكار الدولية ، ص : 822.
[12]- علي بن يوسف القفطي ، المرجع السابق، 83/1. وأحمد تيمور، المرجع السابق، ص: 17.
[13]- شوقي ضيف، المرجع السابق، ص: 167.
[14]- الذهبي، سير أعلام النبلاء، ص: 822. بيت الأفكار الدولية،2004م.
[15]- شوقي ضيف ، المرجع السابق ، ص : 167.
[16]- عفيف عبد الرحمن ، معجم الشعراء العباسيين ، ط : 1 –2000م، دار صادر للطباعة والنشر. ص: 524.
[17]- شوقي ضيف ، المرجع السابق، ص : 167 ، وياقوت الحموي ، معجم الأدباء 296/1. والزركلي، الأعلام، ط:15–2002م، دار العلم للملايين، بيروت–لبنان، 157/2.
[18]- نفس المصدر، وياقوت الحموي ، المرجع السابق ،302/1.
[19]- ياقوت الحموي ، المرجع السابق ،303/1.
نفس المصدر.
[21]- شوقي ضيف، المرجع السابق ، ص: 169، و ياقوت الحموي، المرجع السابق ، 303/1.
[22]- علي بن يوسف القفطي ، المرجع السابق ، ص : 86.
[23]- أحمد تيمور ، المرجع السابق ، ص : 29.
[24]- شوقي ضيف ،المصدر السابق ، ص : 169.
[25]- ياقوت الحموي ، المرجع السابق ، ص: 306.
[26]- أحمد أمين، فيض الخاطر،(د–ط–ت)، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، 144/6.
[27]-أحمد تيمور، المرجع السابق ، ص:132
[28]- نفس المصدر، وإنباه الرواة:114/1، ووفيات الأعيان:115/1، وسير أعلام النبلاء:ص:822.
[29]- ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، (د–ط) -1978م، دارصادر، بيروت، ص :115/1.
[30]- أحمد تيمور ، المرجع السابق ، ص : 21.
[31]- طه حسين، مع أبي العلاء في سجنه ، ط:14- 1979م، دار المعارف، القاهرة ص: 187.
[32]- نفس المرجع، ص: 81.
[33]- حامد عبدالقادر ، فلسفة أبي العلاء مستقاة من شعره، (د–ط)، 1950م، لجنة البيان العربي ، ص: 36.
[34]- أبو العلاء المعري- اللزوميات، 678/2.
[35]- نفس المرجع ،680/2.
[36]- نفس المرجع ، 164/2.
[37]- نفس المرجع ، 1/ 183.
[38]- نفس المرجع ، 66/1.
[39]- طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، ص:109. دار المعارف –القاهرة، ط:6، 1963م.
[40]- أبو العلاء المعري، المرجع السابق ، 114/3.

[41]- نفس المرجع ، 31/3.

[42]- نفس المرجع ، 297/1.

[43]- طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، ص:110.

[44]- نفس المرجع ، ص:112.(أنظر كذلك: تاريخ الأدب العربي، لأحمد حسن الزيات، ص:306، والجامع في تاريخ الأدب العربي (الأدب القديم) لحنا الفاخوري، ص:848، وتاريخ الأدب العربي، لشوقي ضيف،167/6، والوافي بالوفيات، لصلاح الدين خليل الصفدي، 62/7.)

[45]- طه حسين، المرجع السابق ، ص:111.

[46]- أبو العلاء المعري، المرجع السابق ، 110/2.

[47]- علي بن يوسف القفطي، المرجع السابق ،90/1.

[48]- أبو العلاء المعري، المصدر السابق، 41/2.

[49]- طه حسين، مع أبي العلاء في سجنه، (د–ط–ت) دار المعارف–القاهرة، ص:57.

[50]- الصفدي، الوافي بالوفيات، ط:1–2000م، دار التراث العربي، بيروت–لبنان،64/7. (أنظر كذلك: بغية الوعاة للسيوطي، ط:1–1965م، مطبع عيسى البابي الحلبي، 316/1، ومعجم الأدباء ص:303، وتاريخ الأدب العربي–شوقي ضيف 167/6.)

[51]- أبو العلاء المعري، المرجع السابق ،417/3.

[52]- أبو العلاء المعري، سقط الزند ، (د–ط) 1957م، دار بيروت للطباعة والنشر– بيروت، ص:198.

[53]- شوقي ضيف، المرجع السابق ،171/6.

[54]- طه حسين ، تجديد ذكرى أبي العلاء، ص:153.

[55]- أبو العلاء المعري، سقط الزند، ص:94.

[56]- أبو العلاء المعري ، المرجع السابق ، 85/1.

[57]- نفس المرجع ، 74/2.

[58]- أبو العلاء المعري– اللزوميات ، 385/3.

[59]- نفس المرجع ، 191/1.

[60]- نفس المرجع ، 121/2.

[61]- نفس المرجع ، 58/1.

[62]- طه حسين و إبراهيم الأبياری ، شرح لزوم مالا يلزم، (د– ط–ت)، دار المعرف–مصر، 81/1.

[63]- أبو االعلاء المعري، اللزوميات، 344/1.

[64]- نفس المرجع ، 350/1.

[65]- نفس المرجع.

[66]- نفس المرجع ، 2/ 61.

[67]- نفس المرجع ، 396/3.

[68]- نفس المرجع ، 86/2.

[69]- نفس المرجع ، 219/2 .

[70]- نفس المرجع ، 393/2 .

[71]- نفس المرجع 3،/165 .

[72]- نفس المرجع ، 160/1.

[73]- نفس المرجع ، ص:58/1.

[74]- طه حسين وإبراهيم الأبياري، المرجع السابق، 84/1.
[75]- أبو العلاء المعري، اللزوميات، 62/1.
[76]- طه حسين وإبراهيم الأبياري، المرجع السابق ، 99/1.
[77]- أبو العلاء المعري، المرجع السابق ،111/1.
[78]- نفس المرجع ، 108/1. (ينظر كذلك:119/1.)
[79]- نفس المرجع ، 218/1.
[80]- نفس المرجع ، 85/1.
[81]- طه حسين وإبراهيم الأبياري، المرجع السابق ، 190/1.
[82]- أبو العلاء المعري، المرجع السابق ، 103/1.
[83]- طه حسين وإبراهيم الأبياري، المرجع السابق ، 253/1.
[84]- أبو العلاء المعري، المرجع السابق ، 297/1.
[85]- نفس المرجع ، 128/1.
[86]- طه حسين و إبراهيم الأبياري، المرجع السابق ، 371/1.
[87]- أبو العلاء المعري، المصدر السابق ،314/2.
[88]- نفس المرجع ،319/2.
[89]- نفس المرجع ،406/2.
[90]- نفس المرجع ،176/3.
[91]- نفس المرجع ، 267/2.
[92]- طه حسين، تجديد ذكرى أبي العلاء، ص:279
[93]- نفس المرجع.
[94]- أبو العلاء المعري، المرجع السابق ، 471/2.
[95]- نفس المرجع ،325/1.
[96]- نفس المرجع ، 227/2.
[97]- نفس المرجع ، 71/3.
[98]- نفس المرجع ، 111/2.
[99]- نفس المرجع ، 170/2.
[100]- نفس المرجع ، 424/2.
[101]- نفس المرجع ، 194/3.